Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (5), Issue (5): 30 Apr 2021
P: 20 - 38

ISSN: 2522-3380

مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (5)، العدد (5): 30 إبريل 2021م
ص: 20 - 38

Social Commandments in the Pre-Islamic Era: A Literary Study

Noora obaid Abbas

College of Sciences and Arts in Baljurashi || Al-Baha University || KSA

Abstract: the study aimed at demonstrate the values and ideals in the heritage of pre-Islamic literature, as a model the commandments that carry the wisdom of sincere experiences, in terms of implanting human values through the branches of the Arabic language, especially prose and poetry, and extracting the lofty values objectives from these commandments that support the linguistic, human and spiritual skills of society.

The study used the analytical descriptive method. The study revealed that will literature in the pre-Islamic era is an independent art that deals with special issues that distinguish it from all other literary arts, because it charts an independent path for itself, which was manifested in the utilization of personal experience resources, acquired knowledge and high moral values.

The study also recommended that to make use of the pre-Islamic commandments in order to become an educational method, because it contains a high direction for what society should be.

Keywords: pre-Islamic, commandments, social, poets, spiritual values.

الوصايا الاجتماعية في العصر الجاهلي: دراسة أدبية

نوره عبيد عباس

كلية العلوم والآداب ببلجرشي || جامعة الباحة || المملكة العربية السعودية

الملخص: هدفت الدراسة لبيان القيم والمثل في موروث الأدب الجاهلي، نموذجاً الوصايا التي تحمل حكمة التجارب الصادقة، من حيث غرز القيم الإنسانية من خلال أجناس اللغة العربية لاسيما النثر والشعر، واستخراج الأهداف السامية القيم من هذه الوصايا، التي تدعم المهارات اللغوية والإنسانية والروحية للمجتمع، واستخدمت الدراسة المنهج التحليلي الوصفي. وقد كشفت نتائج الدراسة أن أدب الوصايا في العصر الجاهلي فن مستقل بذاته، يعالج موضوعات خاصة، تميزه عن سائر الفنون الأدبية الأخرى، لأنه اختط لنفسه طريقا مستقلا، تجلّى في نهل موارد الخبرة الشخصية، والمعارف المكتسبة والقيم الأخلاقية السامية.

كما أوصت الدراسة أن يستفاد من الوصايا الاجتماعية في العصر الجاهلي، حتى تصبح منهجاً تربوياً، لما تحويه من توجيه عال لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع.

الكلمات المفتاحية: الجاهلي، الوصايا، الاجتماعية، الشعراء، القيم الروحية.

المقدمة.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين، سيدنا ورسولنا وصفينا المبعوث رحمة للعالمين، محمد - صل الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

يأخذ هذا البحث على عاتقه، دراسة فن الوصايا الاجتماعية في العصر الجاهلي.

والوصية ليست مرهونة بشخص معين، أو ظرف خاص، فالحياة البشرية بتقلباتها تستدعي ذلك، إذ يحتاج الإنسان إلى الوصية، في تنظيم شؤون حياته الاجتماعية والأخلاقية .

مشكلة البحث:

تتحدد إشكالية البحث في الأسئلة التالية:

1. بم تميزت الوصية الجاهلية.؟
2. ما مضامين الوصايا الجاهلية.؟
3. كيف تقدم الوصايا النثرية الجاهلية مضمونها الوعظي.؟
4. ماذا تقدم الوصايا الشعرية.؟

أهداف البحث:

1. دراسة فن الوصايا الاجتماعية في العصر الجاهلي، والكشف عما يميز هذا الفن عن غيره من موضوعات الأدب، وعلاقته بحياة المجتمعات والأفراد على حد سواء.
2. بيان القيم والمثل في موروث الأدب الجاهلي، نموذجاً الوصايا التي تحمل حكمة التجارب الصادقة من حيث غرز القيم الإنسانية، من خلال أجناس اللغة العربية لاسيما النثر والشعر، واستخراج الأهداف السامية القيم من هذه الوصايا، التي تدعم المهارات اللغوية والإنسانية والروحية للمجتمع.
3. تقديم الشواهد والأدلة التي تؤكد هذه الوصايا، وتحديد أهم الوصايا الاجتماعية، التي تطرق إليها الأدباء في ذلك العصر.

أهمية البحث:

- تأتي أهمية الوصايا الاجتماعية، متمثلة في الأدب الجاهلي، لما فيها من تعبير صادق: ادر من شخص ذي مقدرة فائقة، على نظم النثر والشعر المقفى الجزل.
- وأن الوصايا ضرب من الأجناس الأدبية، في عصر ما قبل البعثة المحمدية، تدعم المنشأ الاجتماعي لمكارم الأخلاق، وسنن القيم الروحية والإنسانية.
- فهي خلاصة التجارب الطويلة، يصوغها الحكماء من هذه الأمة أقوالاً، ليقدموها لمن أراد الانتفاع منها، فيأخذ الخبرة.

منهجية البحث:

اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي الوصفي، حيث تم اختيار الوصايا الاجتماعية، المبثوثة في ثنايا الأدب الجاهلي، وتقديم الشواهد المدللة لها.

الدراسات السابقة:

تعرّض بعض الدارسين لجزئيات من مادة هذه الدراسة ضمن دراسات عامة لأدب الوصية، أو دراسات خاصة لها في بيئة محددة، وهي تلتقي مع هذه الدراسة في الإطار العام ومنها على سبيل المثال:

- أدب الوصايا في العصر الجاهلي، جهاد رضا، (1987) رسالة ماجستير وهي تتناول نشوء هذا الفن ومكوناته وموضوعاته والظواهر الفنية والنقدية، وقيمته التاريخية في إطار العصر الجاهلي.

- وهناك دراسة أخرى هي الوصايا في الأدب العربي القديم، د. سهام الفريح (1988) وهي دراسة عامة لهذا الفن في المشرق العربي من العصر الجاهلي وحتى العصر العباسي، وهي تلتقي مع هذه الدراسة في الإطار العام.

وتم تقسيم الدراسة إلى ملخص باللغة العربية واللغة الانجليزية. ومقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة. على النحو الآتي:

- المقدمة: أهمية البحث، وأهدافه، ومنهجية البحث، والمشكلة، والدراسات السابقة، وخطته.
- والتمهيد تناول: الفرق بين الوصية والخطبة، الوصية الأدبية، والحياة الاجتماعية.
- المبحث الأول: وصايا الآباء إلى أبنائهم.
- المبحث الثاني: وصايا النساء إلى بناتهن.
- المبحث الثالث: الوصايا التي قدمها الأدباء إلى أقوامهم وقبائلهم.
- المبحث الرابع: القيم الروحية والأخلاقية.
- الخاتمة: أهم الاستنتاجات، المصادر والمراجع.

تعريف الوصية:

الوصايا تمثل ركناً ركيناً، من أركان النثر الأدبي، في البيئة الجاهلية، حيث كانت تخرج من الذين لهم تجربة طويلة في الحياة، ولهم معرفة بعلاقات الإنسان، والسلوك الإنساني.

والوصية أيضا بمعنى النصح والإرشاد والتوجيه، وهي قول بليغ مؤثر ويتضمن حثًّا على سلوك طيب نافع حبًا فيمن توجه إليه الوصية، ورغبة في رفعة شأنه وجلب الخير له. وعادة تكون من أولياء الأمور وبخاصة الأب والأم لأبنائهما عند حلول الشدائد، أو حدوث الأزمات أو الإحساس بدنو الفراق.

وهي نتيجة الخبرة الطويلة والملاحظة الدقيقة، والعقل الواعي والتفكير السليم ويدفع إليها المودة الصادقة والحب العميق. (الجندي، 1991: 268)

الوصية لون من ألوان النثر التي عرفها العرب في الجاهلية؛ وهي قولٌ حكيم صادر عن مجرّب خبير يوجهه إلى من يحب لينتفع به، أو من هو أقل منه تجربة. (عبد الرحمن، 2015: 206)

وهي كلام موجز بليغ، ثمرة خبرة طويلة، أو تمازج علوم وثقافات واسعة ومتنوعة بشؤون الحياة. (الحوسني: 44)

والوصية من عند الله إنما هي فريضة. يقول تعالى: (يوصيكم الله في أولادكم) (سورة النساء، آية (11)

ويقول الرسول الكريم: -ﷺ-: (واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوانٍ عندكم). (رياض الصالحين، النووي: 110).

ومنها ما جاء على لسان عبد قيس بن خفاف البرجمي قائلا:

أُوصِيكَ إِيصَاءَ امْرِىءٍ لكَ ناصِحٍ *** طَبِنٍ بِرَيْبِ الدَّهْرِ غيرِ مُغفَّلِ.

(الضبي، 1920: 750).

أمّا الوصية المراد بها تناقل العبر، وتوجيه الدروس، فقد جاءت في غير موضع من الشعر كقول عنترة:

ولقد حفظتُ وصاة عمي بالضحى *** إذ تقلص الشفتان عن وَضح الفم

فالوصية إذاً من الوصل والاتصال، ويتضمن هذا الاتصال المعنيين المادي والمعنوي، وهو على أي حال محاولة للاستمرار فهو ضد الانقطاع، وهذا هو المبتغى من المعنى الاصطلاحي، الذي ننشده في هذه الدراسة، وهو إيصال الخبرة ونقل التجربة ومد جذور المعرفة، التي يتناقلها البشر، بغية تحقيق الخير لهم بشكل

عام، أيا كان ميدان تلك الوصية، فالوصية تضمن اتصال السلوك السليم، والرأي السديد عن طريق نقله للأجيال وللمجايلين أيضا، وعليه فالوصية تلتبس بالنصح والإرشاد والوعظ والحكمة. (عزام، 2007: 8)

الفرق بين الوصية والخطبة:

ثمة فرق بين الوصية والخطبة، الخطبة فن مخاطبة الجماهير لاستمالتهم وإقناعهم، أما الوصية فهي قول حكيم لإنسان مجرب، يوصي به من يحب لينتفع به في حياته.

ومن الوصايا التي جاءت في القرآن الكريم قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ). (سورة لقمان، آية 13) والنفس البشرية تميل إلى سماع الوصايا، والتأثر بها، والوصايا في بعض صورها لون من الخطب ولاحقة بها، لما يجمع بينهما من مواجهة المخاطبين بالقول، والقصد فيها إلى الإقناع، إلا أن الخطب تكون في جمع عام.

أما الوصايا فتكون عادة لناس مخصوصين، وموضوعاتها الزواج والتوجيه لخلق معين. (الحوسني: 44)

ويورد التاريخ لا كثم بن صيفي جملة من الوصايا والحكم، التي وردت على أنها نصوص مترابطة في بعض المواضع، ووردت على أنها جملة من الجمل القصيرة والحكم والأمثال، وهي كلها تقع في باب الوصايا. إذ قدم فيها أكثم بن صيفي خلاصة خبراته وعصارة تجاربه، ومما يذكر من وصاياه ما قال:

ردا على طلب النعمان بن خميصة البارقي حين كتب إليه قائلا: مثل لنا مثالا نأخذ به: فأجابه أكثم بن صيفي قائلاً: (قد حلبت الدهر أشطره فعرفت حلوه ومره، عين عرفت فذرفت، إن أمامي مالا أسامي، رب سامع بخبري لم يسمع بعذري، كل زمان لمن فيه، في كل يوم ما يكره، كل ذي نصرة سيخذل، تباروا فإن البر ينمي العدد، كفوا السنتكم، فان مقتل الرجل بين فكيه، أن قول الحق لم يدع لي صديقا، الصدق منجاة، لا ينفع مع الجزع التبقي، ولا ينفع مما هو واقع التوقي ستساق إلى ما أنت لاق، حيلة من لا حيلة له الصبر، كونوا جميعا، فإن الجمع غالب، تثبتوا ولا تسارعوا فان أحزم الفريقين الركين، رب عجلة تهب ريثا. (العسكري، 1964: 393-395)

وأيضاً من وصاياه أمام كسرى قوله: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعاً، وخير الأزمن اخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها، الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء، آفة الرأي الهوى والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة، اصلاح فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعي من فسدت بطانُهُ كان كالغاصّ بالماء، شرُ البلاد بلاد لا أمير به، شرُ الملوك من خافه البريء المرء يعجز لا المحالةَ، أفضل الأولاد البررة، خيرُ الأعوان من لم يُراءِ بالنصيحة، أحقُ الجنود بالنصر من حسُنت سريرته، يكفيك من الزاد ما بلَّغَكَ المحلَّ، حسبُك من شرِّ سماعُهُ، الصَّمتُ حُكمٌ وقليلٌ فاعلُ البلاغة الإيجاز، من شدّد نفَّرَ ومن تَراخَى تألَّفَ. (صفوت- ص 21-22)

الوصية الأدبية:

الوصايا الأدبية هي جسر يربط بين السلف والخلف، وذلك لما يمد الأول الثاني، من خبرة وتجربة في الحياة وطريقة الإقبال عليها، وهذا نتيجة لما واجه الموصي في حياته من اليسر والعسر.

حيث تكون خلاصة موجزة عن حياة المرء في شؤونه وشجونه، وآخر ما يقدمه إلى أبنائه وذويه في حياته أو بنهايتها، بعد أن اختبر الحياة، بكل ما فيها من حلو ومر. (حسن، 1997: 271)

وتتميز الوصايا الأدبية بصدق العاطفة وقوتها، وذلك من خلال ما يريده الموصي للموصى إليه، من خير وبحث عن الأفضل، كما تتميز بأسلوب فني خاص، فهي التي تكون قد نبعت من الموصي من خلال تجاربه النظرية والعلمية، بأسلوب فني متميز يميزه عن غيره من الوصايا العادية. (مناع، 1993 ص107)

والوصية أنها نوع من أنواع الأدب الحي الرفيع المنزلة، تنتقى الفاظها انتقاء ممتازاً، يطلقها مجرب حياة ودنيا، فيشرع فيها نهجا قويماً، وسلوكاً تنظيمياً لأنسان عزيز عليه، أو مهم لديه يبصره ما ينبغي عليه أن يفعله فيما يستقبل من حياته، إذا أدلهم خطب، أو حزب أمر في مجالات الحياة المتعددة الأطراف المترامية الجوانب. (الديلمي، 1991: 18)

وللوصية مكان مميز بين فنون النثر، ولذا عدها مؤرخو الأدب فنا قائماً بذاته إذ يقول: الدكتور عمر فروخ عن النثر في عصر ما قبل الإسلام: ومن أوجه النثر في الجاهلية: الأمثال، والوصايا، وسجع الكهان. (فروخ، 1981: 89). وهنا لابد من الوقوف عند مسالة مهمة وهي استقلال أدب الوصايا عن غيره من فنون النثر.

الحياة الاجتماعية:

الأسرة هي الوحدة الأساسية في المجتمع العربي البدوي، وفوق الأسرة كانت القبيلة، التي تتفرع منها عدة فروع وكان رئيس حكومة القبيلة أحد شيوخها، ويراعى في اختياره أن يكون من ذوي السن، والشجاعة، والتجربة. (عبد اللطيف، 2008: 75)

و إن الناس جميعا مهما اختلفوا مطالبون بفضائل عامة من صدق وعدل ونحوهما، يجب أن يتصفوا بها وأنهم على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم يستوون في شيء واحد، وهو أن كلا منهم مطالب أن يضع في الدرجة الأولى من الأخلاق ما يناسب حالته، ويتفق مع مركزه الاجتماعي وعمله الذي يؤديه، وإن اختلف تطبيق ذلك. (أمين: 86)

المبحث الأول: وصايا الآباء إلى أبنائهم

يدلّ ما بين أيدينا من شعر جاهليّ دلالة قاطعة، على عناية الشّعراء الجاهليّين بتربية أبنائهم وصَقْل نفوسهم وغَرْس القيم السّلوكيّة فيها، وتأخذ هذه التربيةُ شَكْل وصايا شعرية ونثرية، يصدرها الآباء إلى الأبناء، بعد أن بَلوا الحياة وخبروها، وامتلأتْ جِعابهم بتجارِبَ إنسانيه، فينقلون هذه التجاربَ إلى الأبناء.

وكان هذا التّراث الأدبي الجاهليّ – بما حوى من قيم سلوكيّة ومُثُل عُليا – مادّة التّأديب في ذلك العصر وظلّتْ له منزلة رفيعة، بين موادّ التّأديب الأُخرى، في العصور الإسلامية. فعمَرُ بْنُ الخطّاب- رضي الله عنه- كان يدرك قيمةَ الشّعر التّربويةَ، وأهدافَهُ السّلوكيةَ، مما جعله يكتب إلى أبي موسى الأشعري مُرْ من قِبَلِكَ بتعلّم الشّعر، فإنّه يدلّ على معالي الأخلاق، وصواب الرأي ومعرفة الأنساب.

وتوجيهاتُ عُمَرَ تدلّ على فَهْم عميق، لِدَوْر الشّعر في صقل النّفس، فيؤكد هذا المعنى بقوله تحفّظوا الأشعار، وطالعوا الأخبار، فإنّ الشّعر يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويعلّم محاسن الأعمال، ويبعث على جميل الأفعال، ويشحذ القريحة، ويحدو على ابتناء المناقب وادّخار المكارم، وينهى عن الأخلاق الدّنيئة، ويزجر عن مواقعة الرِّيَبِ، ويحضّ على معالي الرّتب. (خضر: 2)

وعلى نحو ما نجد ذلك في وصايا ذي الإصبع العدواني، وعبد قيس بن خُفاف البُرْجُميّ، وعمرو بن الأهتم وقيس وغيرهم، وهي وصايا طويلة، حَرَص كلّ واحد من هؤلاء الشّعراء على أَنْ يرسم لابنه أو أبنائِه صورة البطل الكامل، والإنسان الأُنموذج، وهذا كلّه يدلّ دلالة قاطعة على عناية هؤلاء القوم بتربية أبنائهم، وحرصهم على السّمو، وتزداد حاجة الأبناء لوصايا الآباء، إذا أصبح الأب كبيرًا في السن، عاجزًا عن متابعة أبنائه، والوقوف إلى جانبهم في معترك الحياة، ويبدو ذلك في قول عبدة بن الطبيب لأبنائه :

أَبَنِيَّ إِنِّي قد كَبِرْتُ ورَابَنِي *** بَصَرِي، وفِيَّ لِمُصْلِحٍ مُسْتَمْتَعُ
أُوصِيكُمُ بِتُقَي الإِلهِ فَإِنَّهُ *** يُعْطِي الرَّغائِبِ مَنْ يَشَاءُ ويَمْنَعُ

بِبِرّ وَالِدِكُمْ وطاعةِ أَمرِهِ *** إِنَّ الأَبَرَّ مِن البَنِينِ الأَطْوَعُ
وَدَعُوا الضَّغينَةَ لا تَكُنْ مِن *** شأْنِكمْ إِنَّ الضَّغائنَ لِلْقَرَابَةَ تُوضَعُ
وَاعْصُوا الَّذِي يُزْجِي النَّمَائِمَ بيْنَكم *** مُتَنَصِّحاً، ذَاكَ السِّمامُ المُنْقَعُ

(قبش، 1985: 511)

وايضاً يفخر أعشى بن طرود بأوامر أبيه التي جعلتهُ يحوز المكارم، قائلا:

إنّي حَوَيْتُ على الأقوامِ مكرمةً *** قِدْماً وحذّرني ما يتّقون أبي
وقال لي قَوْلَ ذي عِلْم وتجربةٍ *** بسالفاتِ أُمور الدّهر والخُطبِ
أَمرتُكَ الخيرَ فَافْعَلْ ما أُمِرتَ بِه *** فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَسَبِ

(الآمد ي، 1991: 19)

ومن الوصايا ما أوصي به عبد قيس بن خُفاف البُرجميّ ابنه جُبَيْلا بإكرام ضيفه قائلاً: -

أجُبَيْلُ إِنَّ أَباكَ كارَب يَوْمُهُ *** فإِذَا دُعِيتَ إِلى العَظَائِم فاعْجَلِ
والضّيفَ أكْرِمْهُ فإنّ مبيتَهُ *** حقٌّ، ولا تكُ لُعْنَةً للنزّلِ
وَاعْلَمْ بأنّ الضّيفَ مُخْبِرُ أهلِهِ *** بمبيتِ ليلته وإنْ لم يُسْأَل

(الضبي، 1920: 750-751)

فإكرام الضّيف حقّ، لا يجوز التّفريط فيه ولا التّهاون، لأنّ التقصير في هذا الحقّ يُلحق به لعنة مدى الدّهر، ولأنّ الضّيف يُشيع هذه الأخبار بين أهله وأبناء مجتمعه، سواء سألوه أم لم يسألوه.

ولإكرام الضّيف عند عمرو بن الأَهْتم بُعْدٌ أَخلاقيّ، فيوصي ابنه رِبْعيّا بإكرام ضيفه، وقت الشدّة، حين يشحّ الزّادُ، ويضنّ الآخرون قائلاً: -

وجاري لا تُهينَنْهُ وضَيْفي *** إذا أَمسى وراءَ البيتِ كور
يؤوبُ إليك أَشعثَ جرّفتْهُ *** عوانٌ لا ينهنهها الفُتورُ
أَصِبْهُ بالكرامة واحتفظْهُ *** عليك فإنّ منطقه يَسيرُ

المرجع السابق (الضبي - ص410)

ويرتبط الجود عند الحارث بن حلّزة بموقف فكريّ، مؤدّاه أنّ الإنسان يجب أن يبذل ما لديه للآخرين، لأنّه لا يدري ما سيحدث فيما عنده من المال، فلربّما صار ماله بعد مماته نَهْباً مقسّما بين الوارثين يعيثون فيه. وفي ضوء هذا الفهم خاطب ابنه عمرا وأوصاه، بأن يحلب الألبان للأضياف، وألاّ يدّخر شيئاً من ذلك قائلاً:

قلتُ لِعَمرٍو حينَ أَبصرته *** وَقَد حَبا مِن دُونِهِ عالِجُ
لا تَكسَعِ الشَولَ بِأَغبارِها *** إِنَّكَ لا تَدري مَنِ الناتِجُ
واحلب لأضيافك البانها *** فان شرَّ اللبن الوالج
رُبَّ عِشارٍ سَوفَ يَغتالُها *** لا مُبطِئُ السَيرَ وَلا عائِجُ

(الضبي – ص 410)

والنصح والارشاد أيضاً يبدو واضحا في قول عبدة بن الطبيب: -

لا تأْمَنُوا قَوْماً يَشِبُّ صَبِيُّهُمْ *** بَيْنَ القَوَابِل بالعَدَاوَةِ يُنْشَعُ.

(الضبي – ص 298)

كما كانتِ المحافظةُ على الجار مظهراً آخَرَ من مظاهر البطولة الاجتماعيّة، لدى الفارس العربيّ في العصر الجاهليّ، الذي كان حريصاً على أَنْ يحميَ الضّعيف، ويدفعَ عنه الظّلم، ويتمثّل هذا الخُلُقُ الكريمُ، في إسباغ الحماية على فردٍ أو جماعة، هي في حاجة إليها.

ولقد كان قانون الجوار من أكثرِ قوانينِ المجتمع الجاهليّ، ونُظُمِهِ شُيوعاً وأهميّةً في حياتهم الاجتماعيّة، ولا يكاد القارئ يطالع خَبَرا من أَخبارهم، ولا شعراً من أشعارهم، إلاّ وجدهم يتحدّثون عن الجار، ويحثّون أبناءهم على احترامه، والمحافظة عليه، وكأنّه فرد من أفراد الأسرة.

ولم يكن في الجزيرة العربيّة في العصر الجاهليّ حكومة مركزيّة، تستطيع من خلال قوانينها المفروضة ومؤسّساتها المختلفة، أن تبسط الأَمْن، وتُشيعَ العدالة في حياة النّاس، فتقف في وجه الظّالم، وتردعه عن ظُلْمه، وتساعد الضّعيف وتأخذ بيده، وتعيد له حقّه من ظالمه، فنشأ هذا النّظام الذي "أَوجدتْهُ ضرورات الحياة العربيّة قبل الإسلام، كبديل للسّلطة المركزيّة. وهو بديل، مهما كان ناقصاً، استطاع على نحو أو آخر، وبدرجة أو بأُخرى أن يؤدّي وظائف السّلطة العامّة، وأن يوفّر للنّاس قدراً من الأمن والطمأنينة، وأنْ يدفع عنهم بعضاً من الظّلم والاضطهاد، وأن يُعيدَ إليهم حقوقاً مغتصبة وأموالاً منتهبه. (يحي، 1979: 358-359)

وفي هذا المعنى أوصى مالك بن فَهْم بَنيه بالمحافظة على الجار، قائلاً:

عزّ مَنْ كان مالِكٌ له جار *** لَسْتَ في الأَزْدِ إنْ حَلَلْتَ غريبا
كان فَهْمٌ أوصى بَنيه وصاة *** حفظوها وكان فيهم مُصيبا
أكرموا الضّيف، واحفظوا حُرْمة *** الجار، وكونوا ممّن أحبّ قريبا

(السّمرة، وآخرون، 1990: 411)

وقد كَثُرَ دورانُ وصيّة إكرام الضّيف في الشّعر الجاهليّ، فالكرم في قوم حبيبة بنت عبد العُزّى قيمة خلقيّة يتواصى بها الآباء والأجداد قائلة:

إنّي وربِّ الرّاقصاتِ إلى مِنى *** بجُنُوب مكّة هَدْيُهُنّ مقلّد
ولي على هُلْك الطّعامِ أليّةً *** أَبدا ولكنّي أُبينُ وأنشُدُ
وصّى بها جدّي وعلّمني أَبي *** نَفْضَ الوعاءِ وكلّ زاد ينفدُ (اوس: 1635-1636)

ويفخر أيضاً الأعشى ميمون بن قيس بأنّه كان متسامياً في حياته، عاش بين وصيّتين: واحدة ورثها عن أَبيه، وثانية ورّثها لابنه، وقد كثّفتْ الوصيّة الأولى نظرة أبيه إلى الحياة قائلا:

إنّ الأعزّ أبانا كان قال لنا *** أُوصيكُمُ بثلاثٍ إنّني تلفُ
الضّيفَ أوصيكُمُ بالضّيف إنّ له *** حقّا عليّ فأُعطيه وأعترفُ
والجارَ أوصيكُمُ بالجار إنّ له *** يوماً من الدّهر يثنِيهِ فينصرفُ
وقاتلوا القوم إنّ القتلَ مكرمةٌ *** إذا تلوّى بكفّ المعصَمِ العُرُف

(قيس، 1972: 359)

ولقد سجّل الأعشى أيضاً باعتزاز كثير ما تلقاه عن ابيه من وصايا، تحض على إكرام الضّيف وحفظه. أما وصيّة الأعشى لابنه فقد كثّفتْ نظرته إلى الحياة، من خلال حكمة الشيخوخة، في القتال والاستبسال قائلاً: -

سأُوصي بَصيرا إنْ دنوتُ من البلى *** وصاةَ امرئ قاسى الأُمورَ وجرّبا
بأنْ لا تُبَغّ الوُدّ من متباعد *** ولا تَنْءَ عن ذي بِغْضَة إنْ تقرّبا
فإنّ القريبَ من يقرّبُ نفسَه *** لَعَمْرُ ابيكَ الخيرَ لا مَنْ تنسّبا

المرجع السابق (قيس: 359)

فقد أَوصى ابنه بَصيراً بألاّ يلتمس الوُدّ ممّن يتباعد، وإنْ قَرُبَتْ قرابته، ولا ينأ عن المتودّد المتقرّب وإنْ سبقتْ عداوته، وليس القريب مَنْ تربطك به صلة النّسب، ولكنّ القريب الحقّ مَنْ قرّب نفسه بالوُدّ وأَخلصه. ويشكو الأعشى من فساد العلاقات الإنسانية، فهو في زمن لا يُراعى فيه أَحَدٌ قرابةً ولا نَسَبا، يغترب المرء عن أهله، فإذا هو وحيد بين قوم يعتزون بأنصارهم من رهطهم، لا يجد مَنْ يغضب له، أو ينصره إذا خاصم أحدهم، فَهُمْ يَدٌ واحدة عليه، يحطمونه بجَوْرهم، ولا يزال كلّ يوم صريع ظُلْم جديد يتقاذفه القوم جرّا وسحبا.

وكان الجاهليون يعتقدون أَنّ الرّجل إذا مات، ولم تربط ناقته على قبره، ليركبها إلى المحشر يوم البعث حُشر راجلاً لذا كان الرجل إذا مات عمدوا إلى راحلته التي ركبها فيوقفونها على قبره معكوسة، رأسها إلى يدها، ملفوفة الرّأس في وَلِيَّتِها، فلا تُعلف ولا تُسقى حتّى تموت، ليركبها إذا خرج من قبره، وكانت تلك النّاقةُ التي يُفعل بها هذا تُسمّى "البليّة". فقد أَوصى جُرَيْبَةُ بْنُ أَشْيَمَ الفَقْعَسيّ ابنه سَعْدا ألاّ يترك أباه دونما ناقة يركبها إلى المحشر. فخاطبه قائلاً:

يا سعد إما أهلكن فإنني *** أوصيك أن أخا الوصية الأقربُ
لا تتركنّ أباكَ يعثُرُ راجلاً *** في الحشر يُصرعُ لليدين وينكبُ
و احملْ أباكَ على بعير صالحٍ *** وَابْغِ المطيّةَ إنّ ذلك أَصْوبُ
ولعل لي مما تركتُ مطيةً *** في الحشرِ اركبها اذا قيل: اركبوا.

(خضر: 8)

وكان العرب في الجاهلية ينحرون على قبور الموتى النّوقَ، ويبلّلونها بالدّم، وربّما كان هذا من الشّعائر الدينيّة والعقائد الجاهليّة التي لها علاقة بأرواح الموتى فقد أوصى جُرَيْبَة بن الأَشْيَمَ ابنه بأن يعقر مطيّته على قبره، وخاطبه قائلاً

إذا مِتُّ فَادْفِنّي بحرّاءَ ما بها *** سوى الأصرخَيْن أو يفوّزَ راكب
فإنْ أَنت لم تعقرْ عليّ مطيّتي *** فلا قام في مالٍ لك الدّهرَ حالبُ
ولا تدفنّي في صُوى وادفنّني *** بديمومة تنزو عليها الجنادبُ (سعيد، 1976: 132)

ويهرنا بوصاياه الأخلاقية دعامة بن زيد الطّائيّ وهو حريص على تحلّي ابنه بالآداب العامّة، في المجالس فيوصيه قائلاً:

لا تقطعنَّ مقالةً في مجلسٍ *** لا تستطيعُ إذا مَضَتْ إدراكَها
قِسْ كُلَّ أَمْرِكَ قَبْلَ جهرِكَ بالتي *** فاتَتْ ولمّا تستطِعْ إمْساكَها (سعيد: 124)

ومن الوصايا الاجتماعية، ما أوصى به زهير بن جناب بن هبل الكلبي خطيب قبيلة قضاعة، وسيدها وشاعرها ومبعوثها، إلى ملوك الجاهلية أبناءه قائلاً: -

أَبَنِيَّ إن أَهلِك فقد *** أوْر ثْتُكُم مجداً بَنِيَّه
وتركتكم أولاد سا *** دات زنادكم وريةٍ
كُلّ الذي نالَ الفَتى *** قَد نِلتُهُ إلّا التَحِيَّه
ولقد رأيتُ النار للس *** سُلافِ توقد في طميّة.

(البيطار، 1999 : 113-116)

وهذا ذو الإصبع العدواني أَحَدُ حكماء العرب في الجاهليّة، خاض غمار الحياة، وعرف ما فيها من خير وشرّ وعُمِّر طويلاً حتّى ملّ الحياة، وعلم أَنّه مهما عاش فلا بُدّ من الموت، فَلْيترك لابنه خيراً ومأثرة وهدى، إذ أراد أن يكون سيّد قومه وحكيمهم، فشرع يوصيه بهذه الوصية (يا بُنَيّ، إنّ أباك قد فني وهو حيّ وعاش حتّى سئم العيش، وإنّي موصيك بما إن حفظتَهُ، بلغْتَ في قومك ما بَلَغْتُهُ، فاحفظْ عنّي: أَلِنْ جانبك لقومك يحبّوك، وتواضَعْ لهم يرفعوك،

وابسُطْ لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثرْ عليهم بشيء يسوّدوك وأَكْرِمْ صغارهم كما تكرمُ كبارهم، يكرمْكَ كبارُهم، واسْمَحْ بمالك، وارحْمِ حريمك، واعْزُزْ جارك وأعِنْ مَن استعان بك، وأكرمْ ضَيْفَك، وأسرع النّهضة في الصّريخ، فإنَّ لك أجَلا لا يعدوك وصُنْ وجهك عن مسألة أحد شيئا، فبذلك يتمّ سؤدُدُك. (أبو عاقلة، 2005: 137- 138)

ولم يكتفِ ذو الاصبع بالمنثور، بل أنشأ على الفَوْر قصيدة رائعة ضمّنها وصايا أُخَر فأمَرَ ابنه أُسَيْداً باصطفاء الكرام ومؤاخاتهم، مدركاً بذلك أَثَر صحبة الأخيار، في تربية الخلُق وتقويم النّفس، فالإنسان مولع بالتّقليد، فمثلما يقلّد مَنْ حَوْلَهُ في الملبس والمسكن، يقلّدهم في الخُلُق، ويتخلّق بأخلاقهم، فقد قال أحد الحكماء: نبّئني عمّن تُصاحب أُنبئك مَنْ أنت، فمعاشرة الرّجل الكريم تُلقي في نفس الإنسان المروءة والنّخوة، لذا يأمر هذا الأبُ ابنه بأن يلزم صداقة الكرام، وأنْ يشرب بكأسهم، ولو شربوا به سُمّا ناقعاً، وأن يكون وَصولا لهم وَدودا، لأنّ في صداقتهم فضلاً له قائلا:

آخِ الكرامَ إنِ اسْتَطَعْ *** تَ إلى إخائهمُ سبيلا
واشربْ بكأسِهم وإن *** شربوا به السمّ النّميلا
أَهِنَ اللّئامَ ولا تَكُنْ *** لإخائهم جَملا ذَلولا
إ نّ الكرامَ إذا تُـؤا *** خيهمْ وجدتَ لهم فضولا
وصِلِ الكرام وكن لمن *** ترجو مودته وصولا
ودع التوانِي في الأمورِ *** وكن لها سلساً ذلولا
وابسط يمينكَ بالندى *** وامدد لها باعاً طويلا
وابسط يديك بما ملكت *** وشيّد الحسبَ الأثيلا.

(الاصفهاني، ج3: 100)

ومن أبرز الوصايا التي احتفظت له بها المصادر من العصر الجاهلي: قوله: (يا بني قد أتت علي مائتا سنة، وإني مزودكم من نفسي عليكم بالبر، فإنه ينمي العدد، وكفوا ألسنتكم، فإن مقتل الرجل بين فكيه. . ومن قنع بما هو فيه قرت عينه .البطر عند الرخاء حمق، ولا تغضبوا من اليسير فإنه يجني الكثير ولا تجيبوا فيما لا تُسالون عنه، ولا تضحكوا مما لا يُضحك منه، ولا تمنعكم مساوئ رجل من ذكر محاسنه. (سعيد: 64).

وعاش الأوس بن حارثة في العصر الجاهلي دهرا، وليس له ولد إلا مالك، وكان لأخيه الخزرج خمسة اولاد عمرو، وعوف، وجشم، والحارث، وكعب. فلما حضره الموت قال له قومه: قد كنا نأمرك بالتزويج

في شبابك؛ فلم تزوج حتى حضرك الموت فقال لهم: لم يهلك هالك، ترك مثل مالك وإن كان الخزرج ذا عدد، وليس لمالك ولد، فلعل الذي استخرج العذق من الجريمة، والنار من الوثيمة، أن يجعل لمالك نسلا، ورجالا بسلا. ثم اوصى أوس بن حارثة ابنه مالكا قائلا:

يا مالك، المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب، والتجلد لا التبلد، واعلم أن القبر خير من الفقر، وشر شارب المشنق وأقبح طاعم المقتف، وذهاب البصر خير من كثير من النظر، ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم، ومن قل ذل، ومن أمر فل، وخير الغنى القناعة، وشر الفقر الضراعة، والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر، فكلاهما سينحسر، فإنما تعُزُّ من ترى ويعزك من لا ترى، ولو كان الموت يشترى لسلم منه أهل الدنيا، ولكن الناس فيه مستوون، الشريف الأبلج واللئيم المُعلهج، والموت المُفِيتُ خير من أن يقال لك هبِيت، وكيف بالسلامة، لمن ليس له إقامة وشرٌ من المصيبة سوء الخَلَف، وكل مجموع إلى تلف، حياك ألهك. (صفوت: 45-46)

كما كان العربي الجاهلي يحسن المحافظة على الأسرار، ووعى كعب بن زهير أهميّة المحافظة على الأَسرار، وما يترتّب على التّفريط بها، من تفسّخ العلاقات الإنسانيّة، فيصوغ خلاصة تجاربه في الحياة فكرا اجتماعيّا يوصي به ابنه قائلاً: -

لا تُفْشِ سِرَّكَ إلاّ عند ذي ثِقَةٍ *** أَوْ لا فَأَفضلُ ما استَودَعْتَ أَسْرارا

صَدْرا رحيبا وقلْبا واسعا صَمِتا *** لم تَخْشَ منه لما استَوْدَعْتَ إظْهارا

(السكّري، 1996: 188)

ومن الوصايا في العصر الجاهلي ما أوصى به عمرو بن كلثوم التغلبي بنيه قائلا: يا بنيّ، إني قد بلغت من العمر ما لم يبلغ أحد من آبائي وأجدادي، ولا بد من أمر مقتبل، وأن ينزل بي ما نزل بالآباء والأجداد والأمهات والأولاد، فاحفظوا عنى ما أوصيكم به.

إني والله ما عيرت رجلا قط أمرا إلا عير بي مثله، إن حقا فحقا، وإن باطلا فباطلا، ومن سب سبّ، فكفوا عن الشتم؛ فإنه أسلم لأعراضكم، وصلوا أرحامكم تعمر داركم، وأكرموا جاركم يحسن ثناؤكم، وزوجوا بنات العم بنى العم؛ فإن تعديتم بهنّ إلى الغرباء فلا تألوا بهنّ الأكفاء، وأبعدوا بيوت النساء من بيوت الرجال؛ فإنه أغض للبصر وأعف للذكر، ومتى كانت المعاينة واللقاء ففي ذلك داء من الأدواء، ولا خير فيمن لا يغار لغيره كما يغار لنفسه، وقل لمن انتهك حرمة لغيره إلا انتهكت حرمته، وامنعوا القريب من ظلم الغريب؛ فإنك تذل على قريبك، ولا يحل بك ذل غريبك، وإذا تنازعتم في الدماء فلا يكن حقكم للقاء؛ فرب رجل خير من ألف، وود خير من خلف، وإذا حُدثتم فعوا وإذا حدثتم فأوجزوا؛ فإن مع الإكثار يكون الإهذار، وموت عاجل خير من ضني آجل، وما بكيت من زمان، إلا دهاني بعده زمان وربما شجاني من لم يكن أمره عناني، وما عجبت من أحدوثة إلا رأيت بعدها أعجوبة، واعلموا أن أشجع القوم العطوف، وخير الموت تحت ظلال السيوف، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب، ولا فيمن إذا عوتب لم يعتب، ومن الناس من لا يرجى خيره ولا يخاف شره، فَبَكْؤُهُ خير من دره وعقوقه خير من بره، ولا تبرحوا في حبكم فإنه من برح في حب آل ذلك إلى قبيح بغضٍ، وكم قد زارني إنسان وزرته فانقلب الدهر بنا فبرته، واعلموا أن الحكيم سليم، وأن السيف كليم؛ إني لم أمت ولكن هرمت، ودخلتني ذلة فسكت، وضعف قلبي فأهترت، سلمكم ربكم وحياكم.) (مناع، 1993: 118)

المبحث الثاني- وصايا النساء إلى بناتهن.

نجد هذا النوع من الوصايا يقدمه الأب الحكيم أو الأم البليغة، لابنتهما عند الزواج، فالفتاة تربى في بيت أبيها على طبائع معينة، وعادات وتقاليد وقيم تختلف باختلاف البيئة، وتتباين من بيت إلى آخر، فحين تنتقل الفتاة إلى بيت زوجها، من المؤكد أنها ستجد طبائع وقيما وعادات، تختلف اختلافا قد يكون جذريا عن الذي تربت عليه.

وهنا نجد دور الأب والأم، ليضعا أمام ابنتهما الخطوط العريضة، لبناء حياة هانئة من خلال تجربة الأب أو ما مرت به الأم وما واجهته من خلال معاشرتها للأب، وكيفية تعاملهما مع بعضهما، وكيفية العمل لضمان ديمومة العشرة، والحفاظ على الحياة الزوجية، ومراعاة كل طرف للآخر .

إن الرجل وإن كان بحاجة إلى وصية تبين له كيفية التعامل مع زوجته، لضمان حياة مستقرة هانئة هادئة مع زوجته، إلا إننا لم نجد أماً أو أباً يختصانه بوصية، ولكننا وجدنا في أثناء عدد من الوصايا أباً يوصي ابنه باختيار الزوجة الصالحة، ذات الحسب والنسب والرفعة والشرف، لأن هذا سيعود بالمستقبل على أبنائه وأحفاده، ويحذره من الانجرار وراء الجمال، إذا لم تزينه رفعة الأصل وشرف النسب وكمال الأدب. فنجد أكثم بن صيفي يشدد على هذا الأمر فيقول: إياكم ونكاح الحمقاء فإن نكاحها غرر وولدها ضياع.

(عبد الحميد: 182). وكان للأم في العصر الجاهلي حضوراً في فنون النثر، تمثل في الوصايا، والأمثال، والحكم والأقوال كما تحدثت عن الخطب والمنافرات، في مواضيع مختلفة، وتعالج القضايا الاجتماعية جميعها، وتقدم الأم الوصايا المليئة بالحب، والحنان لابنتها لحياتها المستقبلية، وفيها عصارة تجربتها، وتزخر بالموضوعات النافعة في كل العصور. ومن الأمثلة على ذلك، إمامة بنت الحارث التي يقول عنها الإخباريون: أنها فصيحة نبيلة، كانت عند عوف بن ملحم الشيباني-أحد أشراف العرب في الجاهلية- وقد قدّم الإخباريون لهذه الوصية بمقدمة، مفادها أن الحارث بن عمرو الكندي بلغه عن ابنة إمامة هذه جمالا وكمالا، فأرسل امرأة اسمها عصام تتفحصها، فعادت إليه، فوصفتها له وصفا حسيا دقيقا، فأرسل وراء أبيها يخطبها، فزوجه إياها فقالت أمها توصيها عند زواجها: أي بنية: إن الوصية لو تركَتْ لفضل أدبٍ، تُرِكَتْ لذلك منكِ، ولكنها تذكر للعاقل، ومعونة للغافل. ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لِغِنَى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقن، ولهن خُلق الرجالُ. (عبد ربه، 1983: 83)

استهلت الأم وصيتها لابنتها بعبارات قصيرة، سلسة، عميقة المعنى، غنية بالموعظة الحسنة، فيها ما يشبه المديح، أو هو المديح ذاته. فالأم هنا مدركة تمام الإدراك بان لابنتها من العقل، والحكمة والرشد والكمال والأدب ما يغنيها عن أي نصح يمكن أن يقدمه أحد لها، ولكنها آثرت أن توصيها لعلها تغفل عن أمر بسيط قد يكون مردوده كبيرا، فهنا أرادت الأم أن تصون ابنتها من مغبة الوقوع في أي خطأ وان كان يسيرا .وتستكمل إمامة وصاياها، وتجعل هذه الوصايا في عشرة بنود، تمثل في مجملها وعي هذه الأم، ومما جاء فيها قولها يا: بنية: احملي عني عشر خصال تكن لك ذُخْراً وذكراً، الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقّد لموضع أنفه، فلا تَقع عينُه منك على قبيح، ولا يشم منك الاّ أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطِّيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنقيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير. وتُنْهي أمامه وصيتها بتلخيص يتضمن أُموراً مهمة، حيث تقول: وكوني أشد ما تكونين له إعظام يكن أشد ما يكون لك اكراما، وأشد ما تكونين له موافقة واعلمي إنك لا تصلين إلى ما تحبين، حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت والله يخير لك. (صفوت، 1933: 145-146)

وقد ظهرت صورة الأم في هذه الوصية، وعنايتها بابنتها، وحرصها على سعادتها الزوجية، وحثها على طاعة زوجها والقيام بواجبات بيتها؛ لتكون مثالاً للزوجة الصالحة، وأمامه في كل وصية من وصاياها تقدم تعليلاً منطقيا لابنتها تجربة ابنتها قليلة، وخبرتها ليست عميقة في الحياة. وفي وصيتها لابنتها ليلة زواجها بما يصلح منهجاً لكل امرأة إن هي سارت عليه هنأت في عيشها، وأسعدت زوجها وأرضت ربها واخرجت للمجتمع ذرية طيبة، تربت في كنف بيت تحوطه المحبة والوفاق . .وهذه الوصية جديرة بالاهتمام لما تحويه من قيم أخلاقية واجتماعية، ومن توجيهٍ عالٍ، لما ينبغي أن تكون عليه الزوجة المخلصة لزوجها، المجتهدة في تهيئة أسباب السعادة لحياتها والتي ستتحقق بالضرورة، عندما يشعر الزوج بحب زوجته وإخلاصها وسعيها الحثيث لإسعاده، فيقابلها بالمثل .وأن سرد تلك الوصايا والتوجيهات في الوقت الذي تتهيأ فيه الفتاة للانتقال إلى مرحلة جديدة من حياتها، تختلف اختلافاً كبيراً عن حياتها في كنف والديها، هذا السرد له أثره في توعية من ستصبح زوجة ومسؤولة عن بيت وزوج وأبناء قادمين، غير أن

مدى هذا التأثير لن يكون كافياً، إن لم تكن الفتاة مهيأة لتلك الوصايا والتوجيهات، بل وإن لم تكن أصول تلك الوصايا والتوجيهات مغروسة فيها من قبل.

وهناك وصية أُخرى تنسب إلى أعرابية، تعالج الغرض نفسه توجه خطابها إلى ابنتها ليلة زفافها قائلة:

اقلعي زُجَّ رمحه، فإن أقر فاقلعي سنانه، فإن اقر فاكسري العظام بسيفه، فإن أقر فاقطعي اللحم على ترسه، فإن أقر فضعي الإكاف على ظهره، فإنما هو حمار. (ابن قتيبة، 1998: 71)

وهذه الوصية تحمل معاني ودلالات، فهذه المرأة لا ترضى أن يكون الرجل ضعيفا مستسلما أمام جمال المرأة، ولا ترضى لزوج ابنتها أن يكون على هذه الحالة الواهية، فأهم ما يميز الرجل على المرأة رجولته، وأعز ما يملك في العصر الجاهلي آلة الحرب، وعدتها من السيف والرمح والفرس وغير ذلك فإن هانت عليه عدة الحرب التي فيها قوام حياته، هان عليه إي شيء آخر. وهذه الوصية تعتبر اختبار من البنت لزوجها في عزته وكرامته، وربما كانت هذه الأم خاضت في حياتها الزوجية تجربة فاشلة مع زوجها، لأن صفاته لا تتفق مع صفات الرجل الحر الكريم، وهذه طبائع البشر تختلف من واحد إلى آخر، فكان نصيبها رجلاً ناكراً للجميل والمعروف، فوجدت منه النكران وسوء المعاملة، فامتلأ قلبها حقدا عليه وخوفا منه. ، فخافت هي الأخرى على ابنتها، فأرادت أن تكون ابنتها مسترجلة لتضمن لها ديمومة الحياة الزوجية. (الوشاء، 1991: 225). وإن كان مغزى الوصية هذا أو ذاك، فالخلاصة أن المرأة ينبغي أن تكون ذكية فطنة في التعامل مع زوجها، لتبني بيتاً وأسرة تستظل بظلها وتسعد بسعادتها.

وهذه أعرابية أخرى توصي ابنتها ليلة زفافها جملة من الوصايا، وهي تطلب من ابنتها أن تحفظ هذه الوصية لقيمتها ولعلها بذلك تريد تنبيه ابنتها لأهمية الوصية، إذ ما علمنا أن مجمل وصايا العصر الجاهلي، تبدأ بتوجه الاهتمام إلى الحفظ بمعنى المحافظة، لأن في ذلك سر السعادة، ونجاح الحياة الزوجية، وقد جاءت الوصية في قسمين: فأما القسم الأول فقد جعلته تحذيرات وخيمة العواقب، وأما القسم الثاني فقد جعلته واجبات عليها أن تقوم بها، فهي تحذرها من الغيرة المفرطة على الزوج، لأن الغيرة توقع في مشكلات لا نهاية لها، كما قد تؤدي إلى الطلاق والفراق، وكذلك كثرة المعاتبة فإنها تفسد العلاقات الزوجية وتشيع النفاق بينهما، وها هي تقول في وصيتها: أي بنية: أوصيك، فاحفظي وصيتي، وأنصحك فاقلي نصيحتي، اياك وكثرة الغيرة المفرطة فإنها مفتاحاً للطلاق، والمعاتبة، فإنها تؤدي إلى النفاق.

(الحراحشة، 2003: 14- 15)

المبحث الثالث- الوصايا التي توجه للقبيلة أو القوم.

ومن الوصايا التي توجه للقوم، وصية عامر بن الظرب العدواني لقومه وكان عامر بن الظرب العدواني سيد قومه فلما كبر، وخشى عليه قومه أن يموت اجتمعوا إليه وقالوا: إنك سيدنا وقائلنا، وشريفنا، فاجعل لنا شريفا وسيدا وقائلا بعدك فقال: يا معشر عدوان، كلفتموني بغيا إن كنتم شرفتموني؛ فإني أريتكم ذلك من نفسي، فأني لكم مثلا، افهموا ما أقول لكم، إنه من جمع بين الحق والباطل لمّ له، وكان الباطل أولى به، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ولم يزل الباطل ينفر من الحق. يا معشر عدوان، لا تشمتوا بالذلة ولا تفرحوا بالعزة، فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنى، ومن ير يوما يُر به، وأعدوا لكل امرئ جوابه إن مع السفاهة الندامة، والعقوبة نكال، وفيها ذمامة، ولليد العليا العاقبة، والفوز راحة لا لك ولا عليك وإذا شئت

وجدت مثلك. إن عليك كما أن لك، وللكثرة الرعب، وللصبر الغلبة، ومن طلب شيئا وجده، وإن لم يجده يوشك أن يقع قريبا منه. (صفوت- ص123)

ومن الوصايا التي توجه للقوم أيضاً وصية حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري لقومه بني بدر قائلا:

اسمعوا مني ما أوصيكم به: لا يتكل آخركم على أولكم؛ فإنما يدرك الآخر ما أدركه الأول. وأنكحوا الكفء الغريب، فإنه عز حادث وإذا حضركم أمران، فخذوا بخيرهما صدرًا، فإن كل مورد مغروف، وأصحبوا قومكم بأجمل أخلاقكم، ولا تخالفوا فيما اجتمعوا عليه، فإن الخلاف يزري بالرئيس المطاع، وإذا حادثتم فاربعوا، ثم قولوا

الصدق؛ فإنه لا خير في الكذب، وصونوا الخيل فإنها حصون الرجال، وأطيلوا الرماح فإنها قرون الخيل، وأعزوا الكبير بالكبر؛ فإني بذلك كنت أغلب الناس، ولا تغزوا إلا بالعيون، ولا تسرحوا حتى تأمنوا الصباح، وأعطوا على حسب المال، وأعجلوا الضيف بالقرى فإن خيره أعجله، واتقوا فضيحات البغي، وفلتات المزاح، ولا تجيروا على الملوك، فإن أيديهم أطول من أيديك. (صفوت: 129) ومن الوصايا التي توجه للقوم أيضا وصية اكتم بن صيفي الخالدة، تلك الوصية التي كتبها إلى قبيلة طي، والتي تحمل في ثناياها الاهتمام بتقوى الله عز وجل. فأوصى قومه بصلة ارحامهم، والاهتمام بالخيل، وذلك لأنها تدل على الأصالة والبطولة والشجاعة، وخاصة أن العرب في جاهليتها لم تك تهنأ الاّ بفرس تنتج، أو غلام يولد، أو شاعر ينبغ. ثم يمضي فيوصيهم بالإبل، التي يدفعون منها مهر المرأة الكريمة، كما أن فيها غذاء الصغار والكبار، وهي قرى للضيوف الذين يكرمون بنحرها عندما يمرون طالبين القرى، ثم أن أكثم يوصيهم بالصبر وترك الحقد والحسد، والتواني والكسل، ثم يبين لهم أهمية تبادل الزيارات، ويأمرهم بالبذل والعطاء الوافر غير الممنون، وبحفظ اللسان.

أن كل الذي تضمنته وصية أكثم بن صيفي هو من القيم الأخلاقية التي جاء بها النبي- صل الله عليه وسلم- يقول أكثم في وصيته: (أوصيكم بتقوى الله، وصلة الرحم، واياكم ونكاح الحمقاء؛ فإن نكاحها غرر، وولدها ضياع. وعليكم بالخيل فاكرموها، فإنها حصون العرب، ولا تضعوا رقاب الأبل في غير حقها، فإن فيها ثمن الكريمة وعتق الدم، وبألبانها يتحف الكبير، ويغذى الصغير، ولو أن الأبل كلفت الطحن لطحنت، ولم يهلك امرؤ عرف قدره، والعدم عدم العقل، لا عدم المال، ولرجل خير من ألف رجل. ومن عتب على الدهر طالت معاتبته، ومن رضي بالقسمة، طابت معيشته، وآفة الرأي الهوى، والعادة أملك، والحاجة مع المحبة خير من البغض مع الغنى، والدنيا دول، فما كان لك أتاك على ضعفك.

وما كان عليك لم تدفعه بقوتك، والحسد داء ليس له دواء، والشماتة تعقب، وقبل الرماء تملأ الكنائن، والندامة مع السفاهة، ودعامة العقل الحلم، وخير الأمور مغبة الصبر، وبقاء المودة عدل التعاهد، ومن يزر غبا يزدد حبا، التغرير مفتاح البؤس، ومن التواني والعجز نتجت الهلكة، لكل شيء ضراوة فصد لسانك بالخير، رعي الصمت أحسن من رعي المنطق، الحزم حفظ ما كلفت وترك ما كفيت، كثير التنصح يهجم على كثير الظنة، ومن الحق في المسالة ثقل، من سأل فوق قدره استحق الحرمان، الرفق يمن، والحزق شؤم وخير السخاء ما وافق الحاجة، وخير العفو ما كان بعد المقدرة. (ابو عاقلة، 2005: 136-137).

ومن وصاياه أيضاً لرهطه قائلا: يا بني تميم، لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي، إن بين حيزومي وصدري لكلام، لا أحد له مواقع إلا أسماعكم، ولا مقار إلا قلوبكم فتلقوه بأسماع مصغية، وقلوب واعية. تحمدوا مغبته الهوى يقظان، والعقل راقد، والشهوات مطلقة، والحزم معقول، والنفس مهملة، والروية مقيدة ومن جهل التواني وترك الروية يتلف الحزم، ولن يعدم المشاور مرشدا والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل، ومن سمع سمّع به ومصارع الرجال تحت بروق الطمع، ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا في مقاتل الكرام، وعلى الاعتبار طريق الرشاد، ومن سلك الجدد أمن العثار، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ويؤرث غيظه، ولا تجاوز مضرته نفسه. يا بني تميم، الصبر على جرع الحلم أعذب من جنى ثمر الندامة، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان، والكلمة مرهونة مالم تنجم من الفم، فإذا نجمت فهي أسد محرب، أو نار تلهب، ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجوز، ونفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب. (صفوت: 134)

ومن الخطب التي تحمل في طياتها جملة من الوصايا خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني يحرض قومه يوم ذي قار قائلاً: (يا معشر بكرٍ، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب

الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بد. (صفوت، –ص37)

ومناسبة هذه الخطبة عندما كان النعمان بن المنذر قد خاف على نفسه، من كسرى بعد أن امتنع من تزويجه إحدى بناته، ففر إلى ديار بني شيبان، وسلَّم أسلحته وحرمه إلى هانئ بن مسعود أمانةً لديه، ثم رحل إلى كسرى يستعطفه فبطش به، وأرسل من يحمل ودائعه من هانئ، ولكن البطل العربي أبى وَرَدَّ رُسلَ كسرى مغضبين. فجَّهز عاهلُ الفرس جيشاً لغزو العرب، وتأديبهم، فقام هانئ بقيادة الكتائب العربية الباسلة، وانتصر على الفرس في موقعة حاسمة تعرف بموقعة ذي قار، وكان قد جمع قومه وألقى فيهم هذه الخطبة قبل المعركة.

ومن الخطب التي تحمل في طياتها الكثير من الوصايا والنصح والإرشاد، ما قاله قس بن ساعدة الأيادي إلى أبناء قبيلته: (إيها الناس اجتمعوا، واسمعوا وعوا من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آ ت آيات محكمات، مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، ونجوم تمور، وبحار لا تغور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، وليلا داج، ونهار ساج، وسماء ذات ابراج، مالي أرى الناس يمتون ولا يرجعون؟ ارضوا فأقاموا ام حبسوا فناموا يا معشر إياد، اين ثمود وعاد؟ واين الآباء والأجداد.؟ واين المعروف الذي لم يشكر، والظلم الذي لم ينكر.؟ أقسم قس قسماً بالله إن لله دينا هو أرضى له من دينكم هذا قائلا:

في الذاهبين الأولين *** من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا *** للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها *** يمضي والأكابر الأصاغر
لا يرجع الماضي ولا *** يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة *** حيث صار القوم صائر.

(علي، 2008: 235)

ومن الوصايا في العصر الجاهلي ما قاله: قيسُ بنُ زهيرٍ العَبْسِيّ إلى معشر النمر، وقد كان جاورهم بعد يومِ الهَبَاءَةَ وتَزَوَّجَ مِنهم، وأقام فيهم حتى وُلِدَ له، فلمَّا أرادَ الرحيلَ عنهم قال: يا معشرَ النَّمِرِ، إنَّ لكم عَلَيَّ حقًّا، وأنا أريدُ أَنْ أَوصِيَكم، فآمُرُكم بِخِصالٍ، وأَنْهَاكم عنه عليكم بالأناةِ؛ فإنَّ بها تُدْرَكُ الحَاجَةُ، وتُنَالُ الفُرْصَةُ، وتَسْوِيدِ مَن لا تُعَابُونَ بِتَسْوِيدِه وعليكم بالوفاءِ فإنَّ به يَعِيشُ النَّاسُ، وبإعطاءِ مَن تُريدُونَ إعطاءَهُ قَبْلَ المسالةِ، ومَنْعِ مَن تُرْيدُونَ مَنْعَهُ قبلَ الإلحاحِ وإِجَارَةِ الجارِ على الدَّهرِ، وتَنْفِيسِ المَنَازِلِ عن بُيُوتِ اليَتَامَى، وخَلْطِ الضَّيفِ بالعِيال وأنهاكم عن الغدرِ فإنَّه عارُ الدَّهرِ، وعن الرِّهانِ؛ فإنِّي به ثَكَلْتُ مالكًا أخي، وعن البَغْيِ فإنَّه قتلَ زُهيرًا أَبَي، وعن الإعطاءِ في الفضولِ فَتَعْجَزُوا عن الحقوقِ، وعن السَّرَفِ في الدِّماءِ فإنَّ يومَ الهَبَاءَةِ أَلْزَمَنِي العارَ، ومَنْعِ الحُرُمِ إلاَّ مِن الأَكْفَاءِ؛ فإنْ لم تُصِيبوا لَهُنَّ الأكفاءَ؛ فإنَّ خيرَ مَنَاكِحِهِنَّ القبورُ -أو خيرُ منازلها- واعْلَمُوا أَنِّي كنتُ ظالِمًا مظلومًا؛ ظَلَمَنِي بنو بَدْرٍ بِقَتْلِهم مالكًا أخي، وَظَلَمْتُهم بأَنْ قَتَلْتَ مَن لا ذَنْبَ له. (صفوت: 128، 129)

المبحث الرابع- القيم الروحية والأخلاقية.

إن الحياة الإنسانية في عصر ما قبل الإسلام أي في المصطلح النقدي هو العصر الجاهلي، نجدها بين صور الأدباء في شعرهم ونثرهم، كقيم إنسانية تعكس لنا حياتهم اليومية والسياسية والاجتماعية والثقافية والدينية، التي في جملتها تمثل الحياة الأدبية التي بواعثها الأخلاق الحميدة، التي كانت عماد القيم الروحية والانسانية، التي استقام مسارها الإسلامي إلى يومنا هذا، وكأنها كلها وصايا شعرا أو نثرا يحتاج عصرنا لها، كمصدر من مصادر التعليم والتعلم

وفنون المعاملة، والتواصل السامي المعاني في علاقتنا الانسانية، ليتها توشحت بوشاح تلك مكارم الأخلاق، كقيمة تربوية مادام الأخلاق هي في اللغة جمع خُلق، والخُلقُ أسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خُلِق عليها.

كما عرفه ابن منظور قائلا: الخُلُقُ هو الدين والطبع والسجية. (ابن منظور: 140) واشتهر العرب في جاهليتهم بمكارم الأخلاق، ومحامد الأفعال، وبالفصاحة والذكاء والأدب.

وليست المرأة الجاهلية أقل شانا من الرجل، فقد تمتعت بمثل ما تمتع به الرجل، وقدمت عطاء في ميدان الشعر والنثر على السواء فأجادت معنى ودقة وصورة. (بدر: 10) وورث لنا هذا العصر القيم الروحية والانسانية من الكرم، والترابط الاسري، والشجاعة وإغاثة الملهوف وكان إكرام الضّيف من أبرز القيم التي أوصى بها الشّعراء الجاهليّون أبناءهم، فقد كان أبناء ذلك العصر على حال من العيش تعنف كثيراً وتلين قليلاً. والكرم عند العرب الجاهليين، من القيم الروحية والصفات الحميدة التي يجلونها وكانت المرأة حينما تختار زوجا لها أنها تفضل الرجل الكريم، كما فعلت ماوية بنت عفراء، عندما امتنعت عن زواج نفسها الاّ من كريم، وعندما تقدم لها رجال لخطبتها، وكان منهم حاتم الطائي، فاختارته معبرة عن ذلك بقولها: وأما أنت يا حاتم، فمرضي الخلائق محمود الشيم، كريم النفس، وقد زوجتك نفسي، (البغدادي: 216) .

ولا يعني الكرم عند العرب الجاهليين العطاء المادي فقط، بل يعني الكرم الداخلي النابع من النفس المتعاطفة مع الآخرين، وتحقيق التوازن الاجتماعي بين الموهوبين والمحرومين، وهذا ما جعل بعض الناس يقتسم أمواله مع الآخرين، ويبدو ذلك عند الشعراء الصعاليك الذين كانوا يقسمون الأموال على المحتاجين والكبار والمرضى، وخير دليل على ذلك عروة بن الورد الذي يرى فيه قوة النفس، ويعتبر عروة الشخصية الثانية التي اشتهرت بين الناس بالكرم، فقد كان رائعاً في كرمه، يؤثر غيره علي نفسه ويعرض نفسه للمخاطر، لأجل أن يطعم الجوعى، ويعطي اتباعه دروساً في الكرامة، والحياة الحرة الشريفة، وهو شاعر من شعراء الجاهلية، وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها، وكان من شدة إيثاره لغيره واشراك الآخرين معه الزاد أن شحب وجهه وهزل جسمه، وكان يشرب الماء البارد علي الجوع، فيقول في سخرية لاذعة مخاطباً بخيلاً:

اتهزأُ مني أن سَمِنتَ وإنَ ترى *** بجسّمي مسَّ الجوعِ والجوعُ جاهدُ

لأني امرؤُ عافي إنائيَ شِركةُ *** وأنتَ امرؤُ عافي إنَائِكَ واحدُ

أقسمُ جسمِي في جُسومٍ كثيرةٍ *** وأحسُوا قراحَ الماءِ والماءُ بارد

(محمد، 1998: 39)

وتفضل بعض الأمهات تحلي أبنائها بصفات حسنه، فقد سئلت ماوية بنت النعمان عن أحب بنيها اليها فردت بقولها: (الذي لا يرد بسط يده بخل، ولا يلوي لسانه عجز، ولا يغير طبيعته سفه وهو أحد ولدك.

(الاصفهاني، 1996: 510)

وفي المجتمع الجاهلي تظهر صورة الاخت في محبتها لأخيها مما يدل على الترابط الأسري، فنراها تنصحه وترشده إلى التحلي بالخلق السوي، وتنهاه عن الغدر، فهذه غفيرة بنت غفار تنهي أخاها حين أراد أن يمكر بأعدائه، ويصنع لهم طعاما كي ينال منهم قائلة: لا تفعل، فإن الغدر ذلة وعار، ولكن كاثروا القوم في ديارهم، فتظفروا او تموتوا كراما. (النويري، 1992: 341)

والكرم عند العرب الجاهليين يعني الصفات التي يشرف بها المرء، والتي تصنع لصاحبها مكانة اجتماعية راقية، تجعل الجميع ينظرون إليه بعين التقدير والإعجاب. وهو أيضاً من صفات الكمال الخلقي التي يتحلى بها إلى مكارم الأخلاق، والكرم خلق وسجية وطبع ينم عن إرادة قوية وعزيمة لا تقهر، لأن الذي تتعلق به تلك الصفات، يكون علي قدر كبير من الصبر عليها، لأنها تقاوم عوامل البخل والشح في نفس الإنسان، وتعلو فوق مطلب الأثرة

الضيقة، والكرم أيضاً من صفات الخير التي يجب أن يعجل بها كما قال حصن بن حذيفة يوصي ابنه: وعجلوا القرى فإن خيره أعجله، وأعطوا على حسب المال (السجستاني، 1961: 133)

ومن القيم الروحية تقوى الله، وبر الوالدين وصلة الرحم، والمحافظة على الجار، ويبدو ذلك في وصايا أشهر العرب في الجاهلية أكثم بن صيفي، الذي أدرك الاسلام، وكاتب النبي- ﷺ- ثم سار اليه ولكن العطش اهلكه، فأوصى من معه بإتباع النبي -صل الله عليه وسلم- ومن وصاياه الخالدة الباقية تلك الوصية التي كتبها الي طي، والتي تحمل في ثناياها الاهتمام بتقوى الله عز وجل وصلة أرحامهم، وتضمنت وصيته لطي كثير من القيم الاخلاقية التي جاء بها النبي- ﷺ-

كما نجد الجانب الإنسانيّ يبرز في نفس العربيّ بشكل خاصّ، في علاقاته مع جيرانه والمستجيرين به، ولعلّنا لا نجانب الصّواب إذا قُلْنا: لم تعرف أُمّة من الأُمم – دونما استثناء – حُرمةً، كالحرمة التي عرفها العرب للجيرة. ويبدو ذلك في وصية عمرو بن كلثوم إلى ابنائه بالمحافظة على جيرانهم.

حيث أسهمت هذه القيم في التخفيف من حدّة المعاناة اليومية، في ظلّ غياب حكومة مركزية تأخذ على يد الظالم وتردعه، وتأخذ بيد الضعيف وتنصفه، فكانت هذه القيم النبيلة قوّة موازية للقانون. وجاء الإسلام فوجد في العرب فضائلَ خُلُقيةً، وقيما نفسيّةً، أقرّ كثيراً منها، وعدّل جوانب منها، وصاغها على نحو يتناسب مع تعاليمَ الدّين. وكان نظام الجوار من النّظم التي أقرّها الإسلام، وحثّ المسلمين على المحافظة على الجار في كثير من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُب والصَّاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكَتْ أيمانكم). (النساء: 36)

ويحثّ الرّسول -صل الله عليه وسلم - المسلمين على الجار، فيقول ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتّى ظننتُ أنّه سيورّثه ويقول صل الله عليه وسلم: واللهِ لا يؤمن، واللهِ لا يؤمن، والله لا يؤمن! قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائق. (البخاري: 2240)

وكما نجد الكثير من الشعراء الجاهليين يدعون الناس بالحكمة، إلى الخلق الرفيع، والسلوك القويم، والشعر الجاهلي يفيض بحكم ثرة قوامها تجربة الشاعر، وإحاطته بعلائق الناس، ويصدر الشعر رصينا يعين على تخطي عقبات الحياة، وقدح زند العزم وخير مثال لذلك قول ابن جناب التميمي:

لا تعترض للشرِ من دونِ اهلِه *** إذا كنتَ خلواً عن هواهُ بمعزلِ
ومَن يقِ اعراضَ الرجالِ بعرضِهِ *** يُبح حرماً مِن والديهِ ويجهلِ
ولا تجعل الارضَ العريضَ محلُّها *** عليك سبيلاً وعرةَ المتنقلِ
وان خفتَ من دارٍ هواناً فولّها *** وما المرءُ الاَّ حيثُ يجعلُ نفسَه

(ابو عاقلة: 102)

وايضا زهير بن أبي سلمى يحدد مجموعة من القيم والأخلاق التي يجب الالتزام بها، ثم يحدد العواقب التي يمكن أن تنتج عن التخلي عنها قائلا:

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزُّجَاجِ فَإِنَّه *** يُطِيعُ العَوَالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ
وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ *** وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ
وَمَنْ يُوْفِ لا يُذْمَمْ وَمَنْ يُهْدَ قَلْبُهُ *** إِلَى مُطْمَئِنّ البِرّ لا يَتَجَمْجَمِ
وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَة *** يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوْطَأْ بِمَنْسِمِ
وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ *** عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ
وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ *** يَكُنْ حَمْدُهُ ذَماً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ *** يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمْ النَّاسَ يُظْلَمِ
وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسَبْ عَدُواً صَدِيقَه *** وَمَنْ لَم يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لَم يُكَرَّمِ
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مَنْ خَلِيقَةٍ *** وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

(الزوزني: 74-76)

أورد زهير في أبياته السابقة منهجا تعليمي، بالإضافة إلى سرد وتعديد منظومة القيم السلوكية والأخلاقية، التي يرتضيها مجتمعه ويعاقب من يخرج عليها، وفصل لنا هذه القيم وهي: عدم الاستسلام لرغبة الاعتداء وطاعة السلاح، وعدم تجنب الموت والهروب منه، لأنه لا مفر منه ولابد منه لكل واحد والوفاء والبر، والمصانعة، والمحاباة في بعض الأمور، حتى لا تسوء النتائج من قسوة المواجهات، والبذل والعطاء للأهل والمحتاجين، وعدم البخل وإلاّ فالذم والتجنب، وصنع المعروف لمن يستحق حتى لا يتحول إلى ذم وندم، الدفاع عن الوطن، والحمى والمبادرة في ذلك وإلاّ انهزم المرء وظلم، عدم الاغتراب الذي يضل الإنسان، وحفظ النفس وتكريمها، والصدق والشفافية، لأن المرء مهما ظن خفاء الأمر فلابد له أن يعلم.

ومن التركيز على الشيم الخلقية، وفضائل النفس، ما قالته ليلى الأخيلية: ترثي توبة رثاء عاطفياً صادقا نافية أن يكون الموت عار، وقد تناولت عبر هذا الرثاء غير قليل من خواطرها في الحياة:

أقسمت أرثي بعد توبة هَالكاً *** واحفِل مَن دارت عليهِ الدّوائرُ
لعَمرُك ما بالموت عارٌ على الفتى *** إذا لم تُصبه في الحياةِ المعايِر
وما أحدُ حيّاً وإن عاشَ سالِماً *** بأخلدَ ممّن غيّبَته المِقابر
وكلُّ شِبابٍ أو جديدٍ إلى بليّ *** وكلُّ أمرِيٍ يوماً إلى اللهِ صائِرُ (شمس الدين، 1971: 21)

الخاتمة.

سعت هذه الدراسة إلى البحث في الوصايا الاجتماعية في العصر الجاهلي، وحاولت أن تجمعها وتصنفها تبعا لمضامينها، إذ كان الجاهلي كاتبا وشاعرا، ينزع نزعة المصور الحاذق، الذي اجتمعت له ملكة التمثيل وملكت البيان، وتوفرت له أفانين التصوير والتلوين والتعبير، فكان له من فطرته وإحساسه القوي وكثرة مشاهداته ودقة ملاحظاته، ما جعله فريد في هذا الفن.

وإذ قدم الموصون وصاياهم في سياق الآداب العامة، والسلوك الشخصي، والمعاملات وقدموها لشرائح المجتمع المختلفة. ومن أبرز النتائج التي توصلت اليها الدراسة ما يلي: - أوضحت هذه الدراسة مقدار التشابه الكبير الذي يجمع بين الوصايا في الشكل والمضمون، وإن كانت قد بينت بعض مواطن الاختلاف بين الموصيين، وهو أمر عائد إلى اختلاف التجربة الشخصية فحسب، إذ لم يقع الاختلاف في الأمور المتفق عليها.

- الوصايا الاجتماعية في العصر الجاهلي امتازت بإيقاعها الموسيقي، وبالتنوّع في الأساليب الإنشائيّة والخبريّة، وقصر الألفاظ، ووضوح معانيها ومصطلحاتها وعمق المعنى.
- واعتمدت الوصايا في العصر الجاهلي، على الحكم المستخلصة من التجارب الطويلة، التي يصوغها الحكماء من هذه الأمة أقوالاً، ليقدموها لمن أراد الانتفاع منها، فيأخذ الخبرة، وإن كانت تخرج لشخص واحد، فهي يمكن أن تفيد مجتمعاً كاملاً، وتعد مرجعا يفيد النصح والإرشاد.
- وردت الوصايا العربية الجاهلية في صور وقوالب مختلفة ومتنوعة، منها ما هو على صورة مشافهة، ومنها ما جاء في صورة خطبة، ومنها ما جاء في صورة رسالة موجهة إلى شخص معين.

- قد نال أدب وفن الوصية شيئاً كثيراً من الاهتمام والعناية، لما له من أهداف وقيم إنسانية سامية، أسهمت في رفد قيمنا العربية الأصيلة، كما شكل مجالاً رحباً لإظهار القدرة الفكرية للمجتمع العربي، ولاسيما الجاهلي الذي يعد باكورة الأدب العربي والمنبع الصافي، لمعظم أنواع الإبداع الفني.
- أن الوصايا ممارسة اجتماعية، ارتبطت ارتباطا وثيقا بالقدرة على تحليل الواقع، والافادة من الخبرة في تشكيل معان وحكم تبلورت في تجربة الكبار بالعمر، فالوصايا فن اختزال الحياة وفلسفته وهو وسيلة أو طريقة ارتبطت بكبار العمر أي هي فن الشيخوخة.

قائمة المصادر المراجع

- القرآن الكريم.
- السنة النبوية الشريفة.
- ابن منظور، (لا يوجد عام)، لسان العرب، طبعة جديدة ومحققة، ج٥، دار صادر بيروت للطباعة والنشر، لبنان، بيروت.
- ابو عاقلة، سيد، (2005)، الأدب الجاهلي، منشورات جامعة السودان المفتوحة.
- الاصفهاني، ابو الفرج، (لا يوجد عام)، كتاب الأغاني، تحقيق أحمد زكي صفوت، ج3، دار الكتب المصريّة، القاهرة.
- الآمدي، ابن القاسم، (1991) المؤتلف والمختلف في اسماء الشعراء وكناهم والقابهم، تصحيح الدكتور فريتس. كرنكو، ط1، دار الجيل بيروت.
- أمين، أحمد، (لا يوجد عام) كتاب الاخلاق، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
- أوس، حبيب، (لا يوجد عام)، ديوان الحماسة، ج 4
- البخاري، (لا يوجد عام) صحيح البخاري، كتاب الأدب، ج5
- بدر، محمد، (لا يوجد عام)، ادب النساء في الجاهلية والاسلام، ج1، (د. ط)- القاهرة - مكتبة الآداب ومطبعتها.
- البغدادي، (لا يوجد عام)، خزانة الأدب ولب لسان العرب، ج4.
- البيطار، محمد، (1999)، ديوان زهير بن جناب الكلبي، ط1، بيروت، لبنان.
- الجندي، على، (1991)، تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث.
- الحراحشة، أميره، (2003)، ادب المرأة النثري من العصر الجاهلي حتى نهاية القرن الثاني الهجري اطروحة جامعيه، اشراف محمد محمود، الاردن
- حسن، حسن، (1997)، أدب العرب في عصر الجاهلية، ط3، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،
- الحوسني، عبد الحي، (2004)، نثر المرأة من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي، ج1
- خضر، فتحي، (لا يوجد عام)، وصايا الاباء في الشعر الجاهلي، جامعة النجاح الوطنية
- دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- الديلمي، محمد، (1991)، جمهرة وصايا العرب، ط1، ج1، دار النضال.
- رضا، جهاد (1987)، أدب الوصايا في العصر الجاهلي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن
- الزوزني، ابن عبدالله، شرح المعلقات السبع، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
- السجستاني، ابي حاتم، (1961)، المعمرون والوصايا، تحقيق عبد المنعم عامر، دار احياء الكتب العربية، مصر.

- سعيد، زايد، (1976) حركة الشّعر في قبيلة طَيّء في العصر الجاهلي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية.
- سعيد، محمود، (لا يوجد عام)، وصايا الآباء الى الأبناء، نقلا عن: المعمرين والوصايا لأبي حاتم السجستاني
- السكّري، أبي سعيد، (1996)، ديوان كعب بن زهير، ط2، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه د. حنّا نصر الحتّي، دار الكتاب العربي.
- السّمرة، محمود، وآخرون، الط (1990)، الأدب العربي من العصر الجاهلي حتّى نهاية العصر العبّاسي، ط2، وزارة التّربية والتّعليم والشّباب، سلطنة عُمان
- شمس الدين، ابراهيم، (1971)، كتاب الاغاني اخبار النساء ونوادرهن، دار الكتب العلمية بيروت، لبان.
- صفوت، أحمد، (1933)، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، (د. ط)، ج1، المكتبة العلمية، بيروت.
- الضبي، المفضل، (لا يوجد عام) المفضليات، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط 6، دار المعارف، القاهرة.
- عبد الحميد، محي الدين، (لا يوجد عام)، مجمع الامثال، ج2 القاهرة.
- عبد الرحمن، نواف، (لا يوجد عام)، تاريخ العرب قبل الاسلام، الجنادرية.
- عبد اللطيف، السيد، (2008)، جزيرة العرب قبل الإسلام (عصر الجاهلية)، ط1، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.
- عبد ربه، أحمد، (1983)، العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترخيني، ج6، دار الكتب العربية، بيروت، لبنان.
- عزام، حذيفة، (2007) الوصايا في الأدب الاندلسي، اشراف جرار صلاح، رسالة ماجستير.
- العسكري، ابو هلال، (1964)، جمهرة الامثال ج1، المؤسسة العربية الحديثة للنشر.
- علي، محمد، (2008)، الأدب الجاهلي، تحكيم د. الحبر يوسف نور الدائم، منشورات جامعة السودان المفتوحة
- فروخ، عمر، (1981)، تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم من مطلع الجاهلية الى سقوط الدولة الأموية، ط4، ج1، دار العلم للملايين، بيروت.
- الفريح، سهام (1988)، الوصايا في الأدب العربي، ط1، مكتبة المعلا، الكويت.
- قبش، أحمد، (1985)، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، ط3
- قتيبة، ابو محمد (1998)، عيون الاخبار، ج4، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- قيس، ميمون (1972)، ديوان الأَعشى الكبير، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، دار مصر-
- محمد، اسماء، (1998)، ديوان عروة بن الورد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- مصطفى، أحمد امين، (1990)، أدب الوصايا في العصر العباسي الى نهاية القرن الرابع، مكتبة الأنجلو المصرية.
- مناع، هاشم، (1993) النثر الفني في العصر الجاهلي، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان.
- النووي، يحي بن شرف، باب الوصية بالنساء، الجزء الأول.
- النويري، (1992) نهاية الارب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- الوشاء، ابي الطيب، (1991)، الفاضل في صفة الأدب الكامل، تحقيق، يحيى وهيب الجبوري، دار النشر، دار الغرب الاسلامي-
- يحي، لطفي، (1979)، العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت